8

وجهة نظر طالب

«عليك أن تتعلّم أن تعمل مع أناس أعلى منك وآخرين أقل منك»

هولي هولاند

كطالب في الصف الثالث عام 1990، لم يطلع كلينتون هاكني علىٰ السلبيات السياسية التي رافقت صدور قانون الإِصلاح التربويّ عام 1990. وبينما كان المربون والأولياء والسياسيون يناقشون ميزات دمج الطلاَّب الذين أعمارهم بين 5 و9 سنوات في صف واحد وتقييم تقدمهم من خلال تقارير علىٰ شكل سيرة وليس تقارير رقمية، حاول كلينتون أن يضبط سلوكه وأن لا يقول كم كان شاعراً بالملل والضجر في مدرسته الابتدائية في إِقليم جونسون.

ولكن سرعان ما بدأ يلاحظ بعض التغيير المُبْهج. وبالرغم من أَنه أغفل التجربة الأولىٰ للمدرسة المتعلقة ببرنامج المدرسة الابتدائية غير المتدرجة ـ أي اختيار الطلاَّب بصورة عشوائية للاشتراك معاً في

obeikandl.com

السنة لأولىٰ ـ استفاد كلينتون من التحديات الأُخرىٰ التي تجري في مدرسته البعيدة في أبالاتشيا. مثلاً، لم يكن مُلْزَماً أن ينتظر بصبر بينما يعيد المعلّمون الدروس مراراً وتكراراً من أجل الطلاَّب البطيئين. ومن خلال وضع الأَطفال في مجموعات وإِعادة وضعهم في مجموعات أُخرىٰ خلال اليوم، سمح المعلّمون للأَطفال بهذه الطريقة أن يتحركوا بسرعتهم الخاصة بهم بدلاً من السير بالإِيقاع نفسه. وقال كلينتون إِنه كان يذهب عدة مرات في الأسبوع إِلىٰ المكتبة مع ستة طلاَّب آخرين من أجل مداولات وأحاديث موسعة مع أخصائي تربويّ موهوب. وبدأ المعلّمون يتعاونون أكثر وأكثر، الأمر الذي مكَّنهم أن يتخصّصوا في مقررات مدرسية معينة بدلاً من محاولة تعليم كل بحث علىٰ نحو حسن.

وقال كلينتون «وشعرت كأنني كنت أحصل علىٰ رعاية فردية جديدة من المعلّمين».

ووضعته التحديات الأَكاديمية الكبيرة في حالة دائمة من التركيز والانتباه في الوقت الذي أصاب حياته العائلية التمزُّق والفوضىٰ. لقد نشأ كلينتون في سيتكا، المجتمع الريفي المتاخم لمدينة بينتسڤيل، عاصمة الإِقليم، وتقع سيتكا بالقرب من حدود كنتكي مع غرب ڤيرجينيا. وكان الطفل الوحيد من أبوين مطلقين عندما كان في الثامنة من عمره، وذهب في النهاية ليقيم مع جَدَّيه. ولكنه كان علىٰ صلة ودعم متواصلين من والده ووالدته.

«لم أنشأ في وسط» كما قال، يرفض باحتقار الصورة المُبَالغ فيها

التي تقول إن سكان شرق كنتكي سكان غابات وفقراء وغير متعلمين. «لقد نشأتُ في وسط طيب».

عندما دخل المدرسة المتوسطة، لاحظ كلينتون تغييراً تعليمياً آخر، وما تعلمه فيما بعد كان قد نشأ عن المصادر المالية الجديدة والتدريب وهي أمور توفَّرت من خلال الإصلاحات التربويّة في كنتكي. وقال إن معلّميه كانوا مثلاً يعملون من خلال فِرق، وكانوا يخطِّطون الدروس التي كانت تساعد الطلَّاب في فهم العلاقات بين المقرَّرات المدرسية المختلفة وتطبيق المعلومات التي جمعوها من المحاضرات والكتب المدرسية. وكان معلّموه يعطون الطلَّاب كذلك فرصاً دائمة للعمل معاً في مشاريع جماعية، الأمر الذي أظهر لكلينتون أن زملاءه في الصف كانوا يتمتعون بمواهب ومهارات خاصة. وبدلاً من الجلوس في أرتال مستقيمة من المقاعد، «كان للطلَّاب مناضد مستديرة في كل غرفة صف».

«وكان يعمل الجميع لحل هذه المسائل والخطط التالية» قال كلينتون، «في درس التاريخ، كان علينا أن ندرس فترة تاريخية ونكتب عنها تقريراً. في درس العلوم، كان لدينا تجربتان أسبوعياً، ومن ثم يُجرىٰ لنا اختبارات. كان المعلّم يضعنا في مجموعات، ويلقي علينا المحاضرة، ومن ثم يدعنا نعمل معاً لحل مسألة ما. لقد كان ذلك ممتعاً حقاً. عليك أن تتعلم القيادة، وعليك أن تكون جزءاً من فريق. وكان علىٰ الجميع أن يبذلوا جهودهم لتحقيق الهدف».

في عمره المبكر، قال كلينتون إنه اكتشف درساً هاماً متعلقاً

بالتربية التي تعزّزت وقويت من خلال إِصلاحات كنتكي المدرسية: أفضل شكل للمعرفة لا يأتي من حفظ المعلومات عن ظهر قلب ولكن من قدرتك علىٰ شرحها بصورة حسنة وكافية علىٰ نحو يمكن أن يتعلم من خلالها الآخرون. وفي تحدٍ للاعتقاد السائد الذي يقول: يعيق الطلابَ الموهوبين عَملُهم مع أقران أقل قدرة منهم. وحقق كلينتون كذلك المقدمة التي جاءت في قانون الإِصلاح التربويّ التي تقول ـ يمكن للأَطفال أن يتعلموا بطرائق مختلفة وبسرعات مختلفة، ولكن جميعهم يأتون إِلىٰ الصف ومعهم بصر وبصيرة.

«إِنني أعتقد أنك تستطيع أن تتقن مهارة بطريقة أسرع وذلك بتعليمها للآخرين» قال كلينتون. «كان هنالك عدة أمور لم أكن أفهمها ولكن طلَّاباً آخرين كانوا يساعدوني في فهمها وكنت أساعدهم في أمور أُخرىٰ. وكان شعوراً طيباً أننا كنا نعمل معاً. . . أعتقد أن هذه الطريقة تُعَلِّم مهارات الحياة الجيدة. عليك أن تتعلّم كيف تعمل مع أناسٍ أعلىٰ منك وآخرين أقل منك.

«أهم شيء تعلمته من خلال قانون الإِصلاح التربويّ لم يكن العلوم الأَكاديمية النظرية فقط، وإِنما تعلمت كذلك المهارات المحفِّزة التي تجعل الدراسة ممتعة، والمهارات المجتمعية، والمهارات البلاغية، وكيف يتكلم المرء وينقل ما يريد للآخرين، وكيف يكون المرء قائداً، وكيف يعمل مع الناس الذين حوله. وإِذا كنتُ في غرفة وحدي أَو مع طلَّاب آخرين، فمن المحتمل أن أُنجز الأمور فكرياً.

ومن الممكن أن أتعلّم الحقائق. ولكن من الممكن أن أكون عائقاً في الحياة الواقعية».

وبالرغم أَنه كان يشعر بمزيد من الراحة في حل المسائل مع زملاء صفه، كان هنالك فرصة متاحة لكلينتون ليعمل وحده في أقوىٰ مقرراته المدرسية. في الصف الثامن، مثلاً، ساعده معلِّم الرياضيات، ويتقدم طلاَّب جيدون آخرون في كتاب علم المثلثات، بينما كان أقرانهم ما يزالون يدرسون التمهيد إِلىٰ علم الجبر. ولم يَفُتْ انتباه أَو تفكير كلينتون الأبعاد العظيمة للمعرفة. وحتىٰ في ذلك الوقت، قال بأنه كان مدركاً لفرصة جيله الفريدة لتوسيع طموحات الولاية التي كانت محدودة في الماضي. وإِذا تركنا الآراء المُبالغ فيها جانباً، اعتَرَفَ أن سكان أبالاتشيا، بصورة خاصة، أخفقوا تاريخياً في تقدير منافع التربية القوية.

«إِن قانون الإِصلاح التربويّ يعمل ببطء لإِصلاح التربية في كنتكي»، كما قال، «ولا أعتقد أنها سوف تنتقل إِلىٰ وضع آخر إِلاَّ إِذا غيرت كنتكي قِيَمها المجتمعية».

وبالرغم من المعدل العالي للفقر، كانت مدارس إِقليم جونسون تتقدّم باطِّراد نحو أَهداف الأداء التي وضعتها الولاية. وتعتبر المدرسة الابتدائية المركزية، وهي إِحدىٰ مدارس الإِقليم، بين واحدة وثلاثين مدرسة فقط في كنتكي، التي كانت تُحسِّن نتائج اختبارات الإِنجاز كل عام منذ بداية تقييم الولاية وعمليَّة المسؤولية 1991.

أما فرص التطوير المهنية الموسعة، فقد قَدَّمت عوناً واضحاً للمعلّمين. وكما لاحظ ستيڤن ك. كليمينتس في كتابه «المعلّمون في كنتكي»: بعد صدور قانون الولاية للإِصلاح، اشترك المعلّمون في تدريب متخصص بمعدلات أعلىٰ بكثير من معدلات الأمة ككل. ومع ذلك أشار كليمينتس أَنه بالرغم من «توفّر عدة دراسات قومية حديثة حول معدل درجة جودة المعلّمين، وأن المعدل كان بين أفضل المعدلات في الأمة بالنسبة لنظام القوة العاملة للمعلّمين» إلاَّ أن الدراسات لم تؤكد علىٰ المردود ـ «أي ماذا يعرف المعلّمون وماذا يستطيعون أن يفعلوا في غرفة الصف».

وقال كلينتون إِنه عاش النتائج المتعثرة التي بُذلت لتدريب معلّمي كنتكي. وتذكر بعضَ المعلّمين الذين «لم يكن لديهم معلومات لحل مسألة أَو لغز» فمعرفتهم المحدودة عن المقررات المدرسية ومهاراتهم الضعيفة في إِدارة غرفة الصف جعل عمليَّة التعليم عمليَّة صعبة. وقد أدَّت مطالب إِصلاحات كنتكي التربويّة إِلىٰ تعثّر المعلّمين أكثر من تعثّرهم في الماضي، كما قال. وتذكر كلينتون كيف كان عليه أن يُسرع لكي ينهي المقالات التي طلبها بعض المعلّمين في اللحظة الأخيرة لكي ينجزوا المتطلبات الجديدة للولاية التي تقول إِن علىٰ الطلاَّب أن يظهروا بوضوح مهاراتهم في الكتابة وذلك بتقديم مَلَف عن عملهم الكتابي. ومع مرور الوقت، علىٰ كل حال، أدَّىٰ التوكيد الكبير علىٰ الكتابة إِلىٰ فائدة حسنة. فقد تعلم، كما قال كلينتون، هو وزملاء صفه كيف يقيّمون عملهم الكتابي ويراجعونه حسب معايير الولاية ويزيدونه طولاً وتعقيداً.

«أنا أحب الكتابة مع أنها أصعب من المقرَّرات المدرسية الأُخرىٰ» قال «وإِنني أكتب كتاباً الآن. ومن أَهدافي أن أنجزه في نهاية سنة التخرّج».

خلال سنته الأولىٰ في المدرسة الثانوية، فاز بمقعد في برنامج المتفوقين التابع لحاكم الولاية الذي كان يجمع أفضل طلَّاب الولاية معاً في حرم الكليات كل صيف لمدة ستة أسابيع من أجل دراسة مكثفة في اختصاصهم المختار. وكلينتون الطالب الفائز بدرجة A، وكابتن الفريق الأَكاديمي للمدرسة الثانوية المركزية وفريقها لكرة السلة، كان قد درس الفلسفة والتكنولوجيا في دانفيل في كنتكي.

وساعدت جائزة المتفوقين التي يقدّمها الحاكم أن ينال منحة لمدة أربع سنوات كاملة للدراسة في جامعة لويسفيل حيث كان يريد أن يتخصّص في البيولوجيا والكيمياء تحضيراً لمدرسة الطب. وكان باستطاعة كلينتون أن يدرس في أحسن الكليات خارج الولاية، ولكنه قال إِنه كان يريد أن يغلق «المنفذ الذي تهاجر منه الأدمغة» ويحرم كنتكي من أحسن المواهب التي نشأت محلياً. وتذكر محاضراً من العاملين في برنامج المتفوقين والذي قال إِن كنتكي من أكبر مصدري الأمة للشباب المثقفين، وكان يقصد أن عدداً وافراً يسافر من أجل الدراسة أَو الحصول علىٰ مهنة، ولا يعود أبداً.

«ولولا تلك المنحة الدراسية، لكنت واحداً من أولئك الذين يغادرون الولاية كذلك». قال. وبدلاً من ذلك، يخطِّط كلينتون أن

يستخدم بعضاً من معرفته للعمل في أبالاتشيا، حيث وضح له معلّموا كنتكي كيف لفرد ما أن يصبح أقوىٰ من خلال التعاون.

«آمل أن أُحسِّن نفسي»، قال. «ومن ثم سأعود لأُحسِّن مجتمعي».

opeikandl.com